

الفصل الثاني

أصول الفكر السياسي القديم

*الشخصية الأوروبية بين التآبي والخلط

- حظ اليونان والغرب من التحضر
- الرواقية والرواقيون
- بين المسلمين واليونان

في الشخصية الأوروبية:

* رأينا كيف تأبت الشخصية الأوروبية على الجرمان والعثمانيين في عين الوقت الذي استفادت فيه من الصينيين والمسلمين وتلبد اليونان والرومان ما أنبتت به نهضة أوروبية تحيي روح البحث والمغامرة والتحرر من الشوائب العالقة بالدين ؛ وكيف زودت العلوم والإصلاح الديني العقل الأوروبي بالثقة في النفس والإقبال على الحياة .

ثم رأينا كيف خلط صالح ذلك كله بتطرف هنا وهناك وأخذت أوروبا تضرب بأجنحة قومياتها المتنافسة ذات القوميات داخل أوروبا وخارجها وذلك في أتون اندفاع نحو استعلاء واستعمار أظفر الحكر والريث والنهارة فيه انجلترا بأمرين : ديموقراطية داخلية لا تقرها لغيرها . وهي بعد مجرد توافق أرسنقراطي ملكي برجوازي يحيل الصراع على السلطة في الداخل إلى أطموعات وغلبة إلى حين في مضمار التوسع والاستعمار .

فقد وجهت انجلترا الصراع الداخلي فيها إلى التوسع في أيرلندا وأمريكا والهند ومصر وغيرها ؛ ثم كيف مردت عليها أمريكا وأخذ غيرها في الثورة وإن كانت برعت باللعب السياسي في استغلال الشعوب التي أنطقها أو كادت بلغتها في تزويدها وحلفائها بجيوش من مستعمراتها لتحارب بها خصومها المتشبهين بها .

ظهر كيف برزت العنصرية بلونتها الخاصتين في إيطاليا وألمانيا فضلا

عن الشيوعية فى روسيا والهجومانية الإنجليزية بطبيعة الحال؛ وإذ أوج الاحتراب العالمى الإنجليز إلى الشعوب التى احتلوها بررت الغاية الملحة الضرورة المذلة أيضا ومُنَى اليهود والعرب والهنود والباكستانيون باستقلال ونحو ذلك ؛ وإن ظلت البيركية ممتدة فى تشرشل تبنى مصلحتها على بالى دعاوى فى الهند وأيرلندا ومصر ووتتعلق بمجد قومى وتبتهت بتحميل ألمانيا أو غيرها أعداد الضحايا المملينة فى إحصاء تشرشل وغيره.

لقد تبين أثر العُبن الذى حاق بألمانيا بعد الحرب الأولى فى انهيار الاقتصاد والأخلاق فى ألمانيا وزرع العقد فى نفس هتلر الذى نجح فى تحريك الألمان والتمساويين بالفكرة العنصرية الهيجيلية لغزو أوروبا ومطاردة بريطانيا فى إفريقيا وغيرها كاليابان التى لم تسلم من التحيز ضدها بواسطة الثنائى الانجليزى الأمريكى مما أدى إلى انضمامها إلى الألمان وقرمها لاستعمار الصين وغيرها هى الأخرى إلى آخر ذلك من إبادة مدنيتين بالذرة لأول مرة فى التاريخ.

هكذا بسبب التطبيق الحيوانى للأفكار الفلسفية والاقتصادية المتطرفة خسرت الإنسانية أمنها وتروتها وكثيرا من قيمها مما غطى على الفكرة الإنسانية الأخلاقية وأحيا الماكيفيالية تطبيقية جذعة فى النصف الأول من القرن العشرين ؛ وإن كان ناقوس الفكرة الإنسانية لم ين وقد زواه الطغيان فى زاوية ضيقة -أشبه بزاوية التضيق على أفكار حقوق الإنسان فى أننا الراهن- لم ين يشرئب يبشر بالأخوة الإنسانية والحفاظ على الحضارة.

مبلغ حظ اليونان والتمدن الغربى الحديث:

رأينا مبلغ حظ اليونان من التقدم بالإنسانية فى المجال الحقوقى السياسى حيث أخذوا بالانتقائية فى مبدأ خضوع الأقلية لرأى الأغلبية ؛ وذلك بإيثار من أثروا بحق المواطنة دون غيرهم فى أثينا واسبرطة، وعرفنا نظرة اليونان إلى غيرهم من الأمم بصفة عامة وآثار هذه النظرة فى التاريخ الغربى فى مجمله وفى القتمى الاستعمارى خاصة.

ولقد ينظر اليوم إلى مبادئ حقوق الإنسان المعلنة بعد الحرب العالمية الثانية كما ينظر إلى تحرير العبيد فى أمريكا وأوروبا فى التاريخ الحديث على أنها ظاهرة أو مبادئ فريدة أو جديدة على الحضرة الإنسانى. وكلتا الحركتين : اليونانية والمحدثة لا يستطيع ربطهما بدين ما ربطا محكما بل ربما عدتا من صنع العناية البشرى والاجتهاد الفكرى والمصلحى العلمانى وحده .

الفكر الرواقى:

أوردنا امتياز المنطق الرواقى بأنه منطق حس لا يعترف إلا بوجود الأشخاص وينكر إسناد الأرسطية الماهيات إلى الجنس والفصل . والحد عندهم هو تعديد الصفات الخاصة لكل موجود فقط.

فما الرواقية مذاهب وأشخاصا؟

الرواقية Stoicism مذهب مثالى إلى حد التطلع إلى عالم عال على الفساد أو الانحلال. انتشر بين القرن الثالث قبل الميلاد والقرن الثانى بعده.

ابتكرها واعتنقها مفكرون من بلدان مختلفة:

- كزينون Zeno وتلميذه برسة Perse من كنتيوم فى قبرص
- كريزيب وتلميذه انتييار وكذلك أرخميدس ويوريتوس من صيدا
- كليانت من أفسس
- ودوجين البابلى
- وأبودور السلوسى وهو كلدانى أيضا
- بوزيدونيوس السورى وهو أستاذ شيشيرون وصديقه الحميم
- ثم سينكا وابيكتيتوس وغيرهم ممن ذكرنا أنهم تعاطوا الحكمة فى حوض المتوسط.

والفلسفة عندهم – فى قضايا على عبد المعطى- علم الأمور الإلهية والبشرية معا. ومهمتها هداية الإنسان إلى معرفة منزلته ومكانته فى

الكون وإعداده لممارسة الفضيلة الحقة^١.

لم يبال "ابيوكتيتوس" بما ليس للإنسان دخل فيه مما ليس من صنعه وعد من ذلك الثروة والحكم باعتبار ذلك من صنه إله وإنما احتفل بما يتغلغل في أعماقنا كالإرادة والرأى في المحبة والكرامية. ومحاورته الأدبية للطاغية - كما تبدو لنا- نقد لبق لأعمال الطاغية يذكرنا بأسلوب بيدبا الفيلسوف في ترجمة ابن المقفع له عن الهندية أو غيره من كتاب المسلمين ممن كتبوا في أدب الحكم والاجتماع ووعظوا الحكام بالقول اللين غير المنافق؛ ولعل منه ما أوردناه من تعريف عالم إفريقي فقيه مسلم تحت عنوان "المداورة" في القرن التاسع عشر^٢.

وقد تبلورت الحكمة الرواقية عند "ماركوس أورليوس" في أنه ينبغي في الحاكم أخلاقيات رفيعة وكبح جماح وضبط نزوات وتواضع وحلم وأن يكون إنسانا يعامل الآخرين كإنسانيين وأن يؤدي شئون الحكم بنفسه ولا يستمع للدسائس وأن يكب على العلم ويقرب العلماء ويتمرس بالحكمة ويؤمن بالحرية.. ويقود الإمبراطورية كأب ويمنح رعاياه حبا وعظفا . يوضح عباراته ويحدد أوامره . لا يطغى ولا يعد بما لن ينفذه . يصحح أخطاءه ويحب العدالة . وأوجب على الإنسان بصفة عامة أن يفهم ظاهرة العلة والمعلول في الطبيعة ويؤدي دوره وفق قانونها وهو مؤمن بقيمة الإرادة ودور العقل ومسئولية الإنسان^٣.

وما زال مثل هذا الضرب من التأليف شائعا في الثقافة العربية وإن قيدت التعميم في التوجيه الأخلاقي والروحي فيه بمبادئ الشرع الإسلامى تقنيا منهجيا تنظيريا كما في الرسالة للشافعى وتقينا تطبيقيا تعقيديا كما في أصولى الكلام والفقهاء فضلا عن الدساتير التطبيقية المقترحة من قبيل دستور المغيلى في الإمارة أو كما في الفقه المالكى والحنفى والشافعى والظاهرى والفودوى الخ.

^١ على عبد المعطى محمد/ الفكر السياسي الغربى.....، ص ١١٨،

^٢ كتابنا هذا (القومية المحافظة في الشرق)

^٣ على عبد المعطى محمد/ الفكر السياسي الغربى.....، ص ١٢٧- ١٣٠

ويعتبر "شيشيرون" مثلاً للمفكر الروماني الذي تأثر بالفكر الرواقي . وقد أعلى من من شأن القانون ؛ ولكنه عرف السليم منه بموافقته العقل والطبيعة الإنسانية وخالف أفلاطون وأرسطو في نظرهما إلى الإنسان باعتباره مجرد حيوان اجتماعي سياسي بالطبع؛ فاتخذ فكرة المحبة رابطة اجتماعية وسياسية وبها أثر في تفكير آباء الكنيسة وأضفى على مفهوم الشعب الأفلاطوني الأرسطي مسحة إنسانية أعم . فقد رأى أن لكل إنسان في الدولة الحق في قدر محدد من الكرامة الإنسانية والاحترام بوصفه بشرا يملك العقل والطبيعة الاجتماعية.

وقد حازت مبادئ شيشيرون العامة في الحكم – وهي التي تؤيد انبعاث السلطة من الشعب- ودعم الممارسة القانونية لها بالسند الإلهي والأخلاقي. حازت هذه المبادئ تأييدا مطلقا بعد مدة قصيرة من بدء دعوته وظلت من بديهيات الفلسفة السياسية خلال قرون عديدة.

حيث قصرت النظم عن تطبيق حلم شيشيرون ومن قبله "بوليبوس" بالقانون المختلط الذي يجمع بين ميزات الملكية والأرستقراطية والديموقراطية في إطار دستور مختلط على النحو الذي طبقته دولة المدينة الإسرطية^١ ؛ وارتأه أرسطو (الحكومة الوسطية) وربما "چون كالفن" في أخذه بمعيار (المصلحة دون نوع الحكومة) ؛ لم يمكن مع القانون المختلط القضاء على مشكلة الصراع على السلطة ونزاع الطبقات.

ويمثل "سينيكا" الفكر المسيحي الفلسفي النافر من الحكم. ولد في السنة الرابعة قبل الميلاد واضطره تلميذه نيرون على الانتحار فقطع شريانا له وأخذ يلقي خطبه ودمه ينزف ؛ فلم يعلق أملا على روما لتحقيق الإصلاح خلافا لما رآه شيشيرون وغيره ؛ ولم ينافق الشعب بل ذكر أن فساد الشعب غدا أشر من فساد الطاغية ودعا إلى التغلب على النفس في جميع نظم الحكم بقيام الرجل الصالح بواجبه المعنوي وأطرى الحياة الفطرية.

^١ على عبد المعطى محمد/ الفكر السياسي الغربي.....ص ١٠٧- ١٠٩

وقد وصف في رسالته التسعين تلك الحياة بعبارات بليغة أشبهتها عبارات "جان جاك روسو" في القرن الثامن عشر .

فالإنسان عند سينيكا قد كان في حال الفطرة سعيدا هانئا لا يحتاج إلى ممرض أو طبيب . يرضيه القليل . كل ما يرجوه : الطعام والأنثى والنوم. يتسم بالبراءة الكاملة وعشق الحياة البسيطة الساذجة الخالية من كماليات الحضارة وتكالييفها ومظاهرها ؛

أى أنه سبق المعري القائل: " إن الغفة من العيش لتغنى المجتهد عن البرى والريش".

لكن سينيكا لم يربط الاستعلاء بالطموح الطبيعي كما فعل المعري ولم ير مثله في الحياة (قانون الدفع بالقدر اللاحق بدل القدر المقدر قبل) ^١ الذي استسلم له الرواقيون لا غير؛ وهكذا اقتصر سينيكا على أن عزا ظهور الآثام وتحول الحكام إلى طغاة إلى ما استيقظ في نفوس الناس من الرغبة في التملك والحيازة (وأحال وخط)؛ فعزا ظهور ضروب الرفاهية والفساد والملق وانعدام الأخلاق إلى تقدم العلوم والفنون . وعد القانون نتيجة لكل ذلك ليحد بالقسر والإرغام من مساوى البشر ومفاسدهم.

ولا يقلل من قيمة نزعة سينيكا انسانية هذه The Sinicism أنها

^١ للمعري جملة جامعة لأربع أفكار ثمينة صانها بيانها البليغ من لبلى ومن التحريف تقول: "وما زال الشبان المحسون من أنفسهم بالنهضة يبغون ما شرف من المراهص وكيف بالسلامة من الواهص

والمثل السائر: رأى الشيخ خير من مشهد الغلام

وربما سار الطالب سورة فواجهت من القدر زورة"

- إلى قولة: إن الغفة من العيش..... السابقة في عرضنا.

الشاهد من قبيل التأمل في ظاهرة الطموح السياسي . أورده المعري صدد الوزير أبى الحسن المغربي المقتول في مؤامرة لقلب حكم الفاطميين في مصر. قتله الحاكم بأمر الله -كما لقب نفسه- سنة ٤٠٠ هـ

\ أبو العلاء المعري/ رسالة الغفران بتحقيق عائشة عبد الرحمن ، ط ٣، ص ٥٣٤ وما قبلها.

- والشاهد يعزز القول باهتمامات المعري السياسية سواء في مقولة حكم المعري حكومة زهد وورع وبراءة أو في مقولة انخراطه في جماعة إخوان الصفاء .

- وراجع: عبد الحكيم العبد/ أبو العلاء المعري ونظرة جديدة إليه ١٩٩٣م،

اعتبرت أساسا لنزعة اليوتوبيا الحاملة بمجتمع خيالي يسمو على الانحلال والفساد¹؛ و;كما هو وسمها عند الرومانسيين .

بين اليونان والمسلمين (استنارة اعتقاد وعمل ومناصحة للحاكم):

ويستلقت انتباهنا في تاريخ التحضر الإنساني ثلاث تيارات من الاستنارة والاجتهاد البشرى في سبيل التقدم أحدها قديم اهتدى إليه الحنفاء ، وثانيهما وسيط عرف به المسلمون والمفكرون العرب وآخرها هو الحديث العلماني الذي ربما أسهبنا في عرض معالمه ومظاهر تطوره عارضين لحسناته وسلبياته وأفدحها التعصب والاستعمار.

لكن الواقع أن الفكر الإنساني الرصين المتواضع أو العلمي الأخلاقي لم يزل من ساحة الحضارة رغم استعلاء نزعة النفج الإمبراطوري والديموقراطي أو الشعوبي والعنصرى منذ قيام اسبرطة وأثينا إلى قيام إيطاليا وفرنسا وتركيا أو غيرها حديثا.

فجذور هذا الفكر الخالد ضاربة في التاريخ كما أنها لم تذب في تربة الأفكار العنصرية السبخة وليس يجوز صبها في إطار قومية من القوميات ولإن جرى العرف غير المدقق على نسبتها إلى أمة من الأمم كاليونان أو العرب.

ولقد نقف عند الكتاب المسلمين في العصور الوسطى على ثمين من هذه القيم والآثار كما نقف على غيره. لكنه يظل لأجيال العلماء المسلمين المتعاقبة ولاسيما في القرن السادس الهجري وما بعده فضلهم في التمحيص والنقد والنخل الحريص لتراث الإنسانية في مجالات الاعتقاد والعمل مما جلا للإنسانية فكر الحنفاء وجهود حكماء وفلاسفة العصر اليوناني وصلحاء الفرس وخلاها من شوائب السفسطائية والروحية والمادية وغيرها.

¹ على عبد المعطى محمد/ الفكر السياسي الغربي.....، ١١٣- ١١٥

The Encyclopedia Americana, vol. 24, (Seneca, Lucius(4 B.C- 65 A.D.) +

إن أهم سمة لحركة الاستنارة الإسلامية هذه جمعها بين الاعتقاد في التجريد والتجريب على السواء أو مكاملتها بين الدين والعلم أو بين العلم بخصائص الوحي والنبوات وحقائق الكون المادية المختبرة بالتجربة مع مقدرة تحليلية فذة على إدراك التوافق ورد الشبهات والأوهام في النحل المدخولة والزائفة. وهذا كثير وقف علي قليل منه علماء النهضة الأوروبية الحديثة .

ومن ذلك ما ذكره الشهرستاني الملل والنحل من "ذكر حكم هرمس العظيم" فقد أخرج من جملة الصابئة لما رآه في حكمه مما يدل على تقرير مذهب الحنفاء في إثبات الكمال في الأشخاص البشرية وإيجاب القول باتباع النواميس الإلهية .

وهرمس العظيم هذا في قوله (بل في رؤيته) " يعد من الأنبياء الكبار ويقال هو إدريس... عليه السلام وهو الذي وضع أسامي البروج والكواكب السيارة ورتبها في بيوتها وأثبت لها الشرف والوبال والأوج والحضيض والمناظر بالنتليث والتسديس والتربيع والمقابلة والمقاربة والرجعة والاستقامة وبين تعديل الكواكب وتقويمها" ^١ ؛ مما عده الشهرستاني مما يبرهن عليه أي يستدل عليه بالبحث العلمي أو التجربة بلغة عصرنا.

وليس وصف الشهرستاني للنبوة القديمة بالعلمية كوصف الأوروبيين للعلمنة الحديثة بالنبوة كما يطلقون مجازا على أصحاب الاكتشافات العلمية ^٢ . لاختلاف الإيمان في العصرين ^٣

والدى يثبت عندنا أن الشهرستاني يثبت أساس الاستنارة في كتابه قوله الصريح برفض ما لا يثبت بالبرهان؛ ونصه: " وأما الأحكام المنسوبة إلى هذه الاتصالات فغير مبرهن عليها عند الجميع" . ولذا نوه "بطريقة .. الهند والعرب" في الأحكام التي "أخذوها من خواص الكواكب لا من

^١ الشهرستاني/ الملل والنحل ، هامش الفصل في الملل والنحل لابن حزم ، ج ٢ ، ص ١٤٢ ، س ١٣ - ١٨ ، دار الفكر ١٤٠٠ هـ - ١٩٨٠ م

^٢ The Encyclopedia Britannica (science)

^٣ التعريف بإيمان القرن الثامن عشر وغيره - إدموند بيرك - وتحت مصطلح الألوهية ؛ بالدراسة بالدراسة

طبائعها ورتبها على الثوابت لا على السيارات" ؛ أى على النجوم وهى الشمس التى تدور حولها الكواكب فى دورانها دون الكواكب التى هى توابع لها.

واجبات الفاضل: دينا ودنيا:

ذلكم هو النظر العلمى العلمى الذى طرب له الباحث وتثبت به لإيمانه وعزز لديه معنى الدين والشريعة ولم ينقضها أو لم يجد العلم ما ينقضه منها لموافقته العقل والحدس الصحيح. ولذا اعتد بما أورده منها لهرمس . والذى يعيننا جسم الجملة الباقى على الزمن قال: "قال هرمس: أول ما يجب على المرء الفاضل بطباعه المحمود بسنخه المرضى فى عادته المرجو فى عاقبته تعظيم الله عز وجل وشكره على معرفته وبعد ذلك فللناموس عليه حق الطاعة والاعتراف بمنزلته".

ومما ندخله فى بابى السياسة والاجتماع فى أعصارنا من بعد هذا الجيل ما أورده الشهرستانى لهرمس أيضا من العلاقة بين الحاكم والمحكوم فى قوله: "وللسلطان عليه حق المناصحة والانقياد ولنفسه عليه حق الاجتهاد والدأب فى فتح باب السعادة ولخلصائه عليه حق التحلى لهم بالود والتسارع إليهم بالبذل (و) كف الأذى عن العامة وحسن المعاشرة بسهولة الخلق"^١.

وهو ما رأيناه دساتير متوالية فى شكل كتابات رواقية نشفع بها ورسائل إسلامية شتى.

^١ الشهرستانى/ الملل والنحل ، هامش الفصل فى الملل والنحل لابن حزم ، ج ٢ ، ص ١٤٢ ، س ١٣ - ١٨ ، دار الفكر ١٤٠٠ هـ - ١٩٨٠ م ، هـ ج ٢ ، ص ١٤٢ ، ١٤٣

الدكتور عبد الحكيم العبد

الفكر السياسى الغربى والقومية المحافظة فى الشرق

obeikandi.com